Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ الأدب الأندلسي

عصر سيادة قرطبة

الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة

Bibliotheca Alexandrina
0021474

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المكتبة الأندلسية

« ٢ »

تاريخ الأدب الأندلسي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدكتور احسان عباس

تاريخ الأدب الأندلسي

عصر سيادة قرطبة

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

دار الثقافة
بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة

١٩٦٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الطبعة الثانية

منذ مدة غير قصيرة نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، والناشر يراجعني في شأنه وأنا أسوّف وأماطل ، فقد مضت حتى اليوم مدة تقرب من ثماني سنوات ، تكفي لتغيير كثير من النظرات وتتطلب إعادة النظر في كثير من الأمور ، وكنت أحسّ أن إعادة طبعه تتطلب مني أن أعيد كتابته ، وليس لديّ من الوقت ما يجعل ذلك أمراً ممكناً .

وأخيراً وجدت أن التعلل بالمعاذير لم يعد يقنع الناشر أو يرضيه ، فاخترت حلاً وسطاً ، وقمت بمراجعة الكتاب فحذفت منه ما رأيته غير ضروري وزدت فيه أشياء كثيرة رأيت إضافتها إليه ، وغيّرت مسائل لم تعد تثبت للتمحيص بعد ترديد النظر فيها ؛ وعدّلت في ترتيب فصوله ، وأضفت إليه في الملحقات مختارات شعرية جديدة ، بحيث أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب في شكله الجديد يكاد يكون غير ذي صلة قوية بالطبعة السابقة .

على أني قمت بكل ذلك وأنا بعيد عن مصادري وكتبي ، ولهذا أبقيت الإشارات إلى المصادر السابقة على ما هي عليه ، وان كان بعض المخطوط قد طبع ، وبعض المطبوع قد ظهر في شكل علميّ محقق ؛ ومن الحق أن أنوّه بكتابين جديدين أمدّاني بالشيء الكثير في هذه الطبعة وهما :

١ — كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني

٢ — ديوان ابن درّاج القسطلي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالأول منهما قدّم نماذج جديدة للدراسة والحكم ، والثاني جعلني أعيد القسم الأعظم من الفصل الذي كنت قد كتبته عن ابن درّاج .

وبعد : لقد كنت أكثر رضىً عن هذا العمل لو توفر لي الوقت اللازم لكتابته من جديد ، ولكن هذه أمنية لم أستطع تحقيقها ، فأرجو أن يكون في بعض ما حققته منها بعض الرضى لنفسي وللقراء ، وذلك حقاً هو جهد المقلّ ، وفي هذا القدر منه لا أشكو التقصير .

استانبول في ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨

إحسان عباس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة الاولى

هذه فترة من تاريخ الأدب الأندلسي لا يكاد الدارسون يقفون عندها حتى يتجاوزوها عابرين أحببت أن أُطيل اللبث في دراستها وأن أجلو بعض الغموض عن نواحيها لعلي أضع في أيدي قراء الأدب صورة منظمة لفترة هامة من فترات الأدب الأندلسي حقيقة بالدرس والعناية والتوضيح .

وأنا موقن أن الخوض في كبريات المسائل لا يسلم من النقص ولا يبرأ من الخطأ ، غير أني أرى أنّه لا بد للدارسين من أن يكتبوا في الموضوعات العامة مثلما يتوفرون على الموضوعات الدقيقة الخاصة ، بل إني لأعتقد أن أخطائي قد تكون حافزاً للتصحيح والتوجيه ، وبذلك تكون الفائدة المرجوة أكبر من الخطأ . على أني فيما حاولته لم أشأ أن أُطلق العنان للأحكام الواهمة بل قيدت نفسي بالنصوص جهد المستطاع ، وحكمت على ما بين يديَّ دون مغالاة ، حسبما تسمح به المصادر المتيسرة .

وقد أصبحت هذه المصادر تسمح بشيء من الحكم الصائب بعد أن أُبرزت من مكامنها ونشرت على الناس ، لما تلقاه المكتبة الأندلسية اليوم من عناية الناشرين والمحققين سواء ببعث ما لم ينشر من قبل أو بإعادة نشر ما نشر منذ زمن بعيد . وقد كان إخراج طبقات الزبيدي والجذوة والمغرب — مثلاً — خير معين على الكتابة في هذه الفترة ، كما أن تقريب المخطوطات للدارسين وجمعها في صعيد واحد بهمة معهد المخطوطات التابع للجامعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية يسر للدارسين فرصاً لم تكن متيسرة من قبل وذلل لهم عقبات لم يكن تذليلها سهلاً عليهم .

وسيجد القارىء أني صدّرت هذا الكتاب بمقدمة تاريخية عرضت فيها لبعض الحقائق التي يجب أن يلم بها من يقرأ الأدب الأندلسي ، دون أن أوغل في النواحي التاريخية فهي متشعبة مستقصاة في المصادر . ثم حاولت أن أصور كيف نشأ الشعر الأندلسي في حضن ثلاثة أبعاد : مجالس المؤدبين ومجالس الغناء والبيئة الثقافية ، وكيف اتجه الشعر في تيارين : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، وكيف تضاءلت الطريقة الأولى إلى جانب الثانية ، ووقفت عند تبلور الشخصية الأندلسية من الداخل برغم ذلك الاتجاه الشديد نحو المشرق ، ورسمت ظلالاً صغيرة لتطور الشعر حتى قيام الفتنة البربرية ، ثم صورت ذلك الشعر في مظاهره الكبرى وفي تقليد الشعر المشرقي المحدث . ثم ميزت بعض طبقات الشعراء حسب الزمن ، وترجمت لبعضهم مستقصياً حيث أسعفت المصادر على الاستقصاء ، واستكثرت أحياناً من حشد الأمثلة الشعرية ، دون تحليل ، لكي أُقرب هذه الأمثلة على القارىء وهي متناثرة متباعدة في المصادر ، ولكي لا أستقل في الحكم على شيء لا يملك القارىء شواهده ، وهو صنيع ما كنت لأجأ إليه لو توفرت لدينا دواوين أولئك الشعراء .

وبعد ذلك تعرضت لدراسة الفتنة البربرية وأثرها في الأدب وتوزيع الثقافة ونشأة فن التراجم الذاتية وتقوية حركة النقد وترجمت للشعراء الذين تأثروا بها ، ثم عقدت فصلاً تحدثت فيه عن الكتابة في الأندلس ، وهو فصل موجز ، لأن صورة الكتابة لم تتضح تماماً إلا في العصر التالي .

وألحقت بهذه الدراسة ملحقات ثلاثة تتصل بها اتصالاً وثيقاً وهي : (١) مجموعة من شعر الغزال لم تنشر من قبل (٢) رسالة ابن حزم في فضل الأندلس (٣) قطعة من ديوان ابن حزم لم تنشر من قبل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإني لأحس أحياناً أن لابن حزم صورة طاغية على جنبات هذا الكتاب ، وهذا أمر طبيعي في رأيي وأنا أؤرخ هذا العصر ، لأن ابن حزم أرخ هذا العصر نفسه على نحو موجز متقطع حين كتب في تاريخ أمرائه وعلمائه ومؤلفاته وأنساب أهله ، وهو علَم أندلسي لا يستطيع الدارس أن يغفله أو يغفل أحكامه ، وهو حجّة عند الأندلسيين في الخبر ، وهو إلى ذلك كلّه صورة الأندلس نفسها حين أرادت لذاتها شخصية مستقلة .

ولما تحدثت بأمر هذا الكتاب إلى بعض العارفين لقيت منهم تشجيعاً كثيراً على المضي فيه ، وأنا أشكر لهم ثقتهم فيّ وتفضلهم عليّ ، وأخص بالذكر منهم أستاذيّ وصديقيّ : الدكتور حسين مؤنس والدكتور شوقي ضيف ، فقد أبديا عطفاً مخلصاً على هذه الدراسة . أما أخي الدكتور محمد يوسف نجم فإني أعجز عن أن أقدر العون الذي يبذله حق قدره ، حتى ليتضاءل في جانبه جهدي الأصيل ، ومن حق الصديق ألا تحجب صداقته وجه فضله ، حفظه الله ورعاه . هذا ويطيب لي أن أقدم شكري الجزيل للأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات والأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب على مساعدتهما القيمة لي في تسهيل وصولي إلى ما أحتاجه من الأصول .

وإني لأرجو أن يجد هذا الكتاب قبولاً وأن يمنحني ذلك الثقة التي تدفعني إلى تتبع أدوار الأدب الأندلسي بالتاريخ والنقد ، ليكون هذا الكتاب حلقة أولى في سلسلة من عدة حلقات ، والله الموفق .

إحسان عباس

جامعة الخرطوم – كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٩

الدولة الأموية بالأندلس

عبد الرحمن الداخل	١٣٨ — ١٧٢	٧٥٦ — ٧٨٨
هشام بن عبد الرحمن	١٧٢ — ١٨٠	٧٨٨ — ٧٩٦
الحكم بن هشام	١٨٠ — ٢٠٦	٧٩٦ — ٨٢٢
عبد الرحمن الثاني	٢٠٦ — ٢٣٨	٨٢٢ — ٨٥٢
محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ — ٢٧٣	٨٥٢ — ٨٨٦
المنذر بن محمد	٢٧٣ — ٢٧٥	٨٨٦ — ٨٨٨
عبد الله بن محمد	٢٧٥ — ٣٠٠	٨٨٨ — ٩١٢
عبد الرحمن الناصر	٣٠٠ — ٣٥٠	٩١٢ — ٩٦١
الحكم المستنصر	٣٥٠ — ٣٦٦	٩٦١ — ٩٧٦
هشام المؤيد	٣٦٦ — ٤٠٦	٩٧٦ — ١٠٠٩

الحجّاب في عهد هشام المؤيد

المنصور بن أبي عامر	— ٣٩٢	٩٧٧ — ١٠٠٢
المظفر بن المنصور	٣٩٢ — ٣٩٩	١٠٠٢ — ١٠٠٨
عبد الرحمن شنجول	٣٩٩	١٠٠٨ — ١٠٠٩
الفتنة البربرية ثم محاولات إرجاع الحكم الأموي	٣٩٩ — ٤١٨	

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة عامة

يستغرق هذا الجزء الحديث عن الأدب الأندلسي ، شعره ونثره ، إبان سيادة قرطبة ، حين كانت الأندلس ولاية تابعة لدمشق (٩٢ – ١٣٨) ثم حين أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق يحكمها أمراء فخلفاء من بني أمية (١٣٨ – ٣٩٩) . وفي عهد الخليفة هشام المؤيد أصبح صاحب السلطان الفعلي هو الحاجب ، وذلك ما يسمى في التاريخ الأندلسي باسم « الدولة العامرية » ثم تكون الفتنة البربرية ومحاولات متكررة لاسترداد السيادة الأموية ؛ وكلها تبوء بالإخفاق ويقتسم الطامحون مدن الأندلس ويحكمونها باسم ملوك الطوائف وتضيع سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية .

١

كان الفاتحون الأول الذين دخلوا الأندلس مع طارق ومغيث وموسى بن نصير من البربر والعرب ، وكان استيطانهم في البلاد قائماً على استحسان ما يلائمهم من المناطق ولذلك آثر العرب البوادي والمفاوز[١] ، وقد اتخذوا زوجات لهم من أهل البلاد الذين يدعوهم العرب باسم « عجم الأندلس » فإن قسماً كبيراً منهم دخل الإسلام وهم الذين يدعون « المسالمة » ، وقد

١ الفتح ١ : ١٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشأ الصراع أولاً بين العرب والبربر وبين اليمنية والمضرية من العرب أنفسهم ، ثم دخل بلج بن بشر بن عياض القشيري الأندلسي وفي صحبته عشرة آلاف ، ألفان من الموالي والباقي من بيوت العرب ، ويسمى هؤلاء الطالعة الأولى من الشاميين . أما الطالعة الثانية فهي قليلة العدد وقد وصلت بصحبة أبي الخطار الكلبي . وقد أضاف هؤلاء الشاميون عنصراً جديداً إلى عناصر الخصومة في الأندلس . إذ اتحد ضدهم البلديون من العرب والبربر ، وأخذوا يحاربونهم ويقولون : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا[1] ، ويبدو أنهم يعنون ببلدهم مدينة قرطبة وحدها . لأن أبا الخطار حين قدم الأندلس فرق الشاميين في الكور فأنزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريّة وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعاً بتدمير ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم[2] وهؤلاء هم الذين يسميهم ابن حزم : « الأجناد الستة » في قوله في رسالة فضل الأندلس : « ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس » ، وهذه هي الأقسام التي أصبحت تسمى أيضاً « كوراً »[3] وأضيفت إليها غيرها من الكور ، فاستعمال ابن حزم لكلمة الأجناد قد يشير إلى أن الكلمتين مترادفتان في معناهما .

وهؤلاء الشاميون كوّنوا مع الأمويين عصبية واحدة ، وقد تضم كلمة « الأمويين » في هذه القرينة من كان أمويّاً صليبة ومن كان من موالي الأمويين ، ولهؤلاء الموالي مركز اجتماعي رفيع ومنهم بيوت مشهورة بالأندلس مثل بني أبي عبدة وبني شهيد وبني حدير وغيرهم ، وقد نالوا

.....

١ ابن القوطية : ١٧ .
٢ ابن القوطية ١٩ .
٣ الإحاطة ١ : ١٠٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقام الحظوة عند أمراء بني أمية ، ودونهم في المنزلة « الخلفاء » ، وهم فتيان القصر في العهد الأموي ، وهم أول من تؤخذ منهم البيعة[1] . وكان الشاميون يسمون « السادة » ويرجع هذا التمييز إلى وضعهم في الجندية . إذ كان الواحد من الشاميين يرزق بعد انقضاء الغزاة عشرة دنانير إن كان من بيوتات العقد ، فإن لم يكن منها رزق خمسة دنانير ، وللواء الغازي من الشاميين مائتا دينار ، وللواء الغازي من البلديين مائة . ولم يكن الديوان والكتبة إلاّ من الشاميين وكانوا أحراراً من العشر ، أما العرب البلديون فيؤدون العشر[2] .

وبالإضافة إلى هذه العناصر من بلديين ومولدين ومسالمة وشاميين وأمويين كان هناك عنصران آخران من أهل الذمة هما : اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، أما اليهود فقد وثق المسلمون فيهم عند الفتح وضموهم في كل بلد مفتوح مع حامية إسلامية ، وقد تركوا لهم حرية العقيدة وحرية التنظيم الداخلي للجماعة اليهودية ، وأما أهل الذمة من النصارى فقد ذكرنا كيف أن العرب الشاميين نزلوا على أموالهم ، وكان لهم قضاتهم كما كان لهم مطران مركزه طليطلة ، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم ، غير أنه لم يطل بهم حتى استعربوا لساناً وزياً . وكان بعض رجالهم مثل أرطباس مقدماً في عهد الولاة يستشيرونه في كثير من الأمور ، وقد ولاه عبد الرحمن القماسة أي جعله قومساً[3] وهو الذي نصح أبا الخطار بتفريق الشاميين على الكور . وعلى وجه الإجمال كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة بالأندلس إلاّ حين كان الذميون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي .

أما تملك الفاتحين للأرض في الأندلس فقد جرى على وجهين :

---

١ النفح ١ : ١٨٢ .
٢ الإحاطة ١ : ١١٠ .
٣ ابن القوطية : ٣٨ .

أ ــ اعتبر العرب ما فتحوه من الأرض غنيمة ، وهذا ما يدل عليه نص فريد لابن حزم في رسالة التلخيص لوجوه التخليص حيث قال : « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت . ووقعت فيها غلبة بعد غلبة البربر والأفارقة والمصريين فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم »[1] . وهذا النص دقيق بعض الدقة في القول بعدم تخميس الأرض ، ولكنه غير دقيق فيما يتعلق بإخراج البلديين عن أرضهم ، لأن أبا الخطار أنزل الشاميين على أموال أهل الذمة ، إلا قلة منهم كانت قد سكنت مع البلديين ولم ترتحل من منازل استطابتها .

ب ــ ثم اعتبرت بقية الأرض التي لم تؤخذ عنوة أرضَ صلحٍ تؤدى عنها الجزية .

وإلى ابن حزم نرجع مرة أخرى حين نريد أن نتصور توزيع القبائل العربية في الأندلس ، حيث نثر المعلومات المتصلة بهذه المسألة في كتاب الجمهرة . ويتجلى من كلام ابن حزم شدة اختلاط القبائل في المدن الكبيرة أمثال قرطبة وإشبيلية ، وإنما نذكر ثبتاً ببعض القبائل على سبيل التمثيل لا الاستقصاء ليتصور القارىء صلة هذا التوزيع بالحياة الأندلسية عامة[2] :

بنو صخر من غطفان : بناحية قرمونة .

١ رسائل ابن حزم الورقة : ٢٥٠ .

٢ أخذت هذه الجريدة من مواطن متفرقة في كتاب الجمهرة لابن حزم ، ويمكن مقارنتها بما جاء في نفح الطيب ١ : ١٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو مرة : بالبيرة ولهم بإشبيلية بيت واحد وهم بنو عوف بن مرة .

بنو منذر بن الحارث من ثقيف : بباجة .

بنو سلول : جماعة منهم بالموسطة من عمل لبلة .

بنو نمير : بالبراجة .

بنو قشير : بجيان ومنهم بالبيرة عدد .

بنو عقيل : بمنتيشة وجيان ووادي آش .

النمر بن قاسط : بحصن وضاح من عمل رية .

عك : في الجوف شمالي قرطبة .

دوس : بتدمير .

بجيلة : بجهة أربونة .

خثعم : بشذونة ومنهم بالبيرة قوم .

همدان : بالبيرة .

بنو الأشعر : بريّة .

طيء : ببسطة وتاجلة وغليار .

عنس : بجهة قلعة يحصب .

خولان : بقرطبة والبيرة .

المعافر : ببلنسية وجيان ومنهم العامريون بقرطبة .

جذام : بشذونة والجزيرة وتدمير وإشبيلية .

لخم : بشذونة والجزيرة وإشبيلية ومنهم بنو عباد وبنو نمارة .

ذو رعين : بالفحص المنسوب إليهم برية .

بنو هوازن : بالقريتين المذكورتين بهما بإشبيلية .

بلي : شمال قرطبة .

بنو عذرة : بدلاية وبجيان منهم ، وبالثغر منهم بنو فوارتش ولهم عدد بسرقسطة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو قين : برية عدد عظيم منهم .

بنو خشين : بجيان وأعمال البيرة ومنهم بلبلة عدد

وبيّن ابن حزم كذلك أهم بيوتات البربر ومنازلهم بالأندلس[1] وهم بالثغر أكثر من العرب كما أن بعض مواطنهم تكاد تكون مستقلة منعزلة عن مساكن القبائل العربية ، ومنهم أسماء البيوت المشهورة التي سيكون لها دور في التاريخ الأندلسي بعد انقضاء الدولة الأموية مثل : بني رزين وبني ذي النون وبني مضا وبني عميرة ومنهم بنو الزجالي الذين تميزوا أيام الحكم الأموي وغيرهم[2] .

٢

وفي عهد الدولة الأموية ظل ما نسميه « سيادة قرطبة » شيئاً نسبياً ، لأن الحكام لم يستطيعوا أن يضبطوا جميع الجهات الأندلسية ولا انتهت بهم الحروب الخارجية إلى استقرار ، ولذلك كانت تلك السيادة تنبسط حيناً على رقعة واسعة ويتقلص ظلها حيناً آخر . وإذا كان عهد الولاة قد مضى في توسيع الحدود وفي الحروب القائمة على العصبيات فإن عهد الدولة الأموية شغل كثيراً بتثبيت الحدود وبالقضاء على الفتن التي يثيرها الطامحون في الداخل . وقد كان كثير من الثائرين من المولدين والمسالمة ، كما تجددت العصبية بين العرب والمولدين . وفي أيام الأمير عبد الله كانت الأحوال تنذر بتفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة ، إذ نجم الثوار وذر قرن العصبية في كثير من

---

١ الجمهرة . ٤٦٣ وما بعدها .

٢ من شاء التوسع في دراسة الحياة الاجتماعية في عصر الولاة فليراجع كتاب « فجر الأندلس » للدكتور حسين مؤنس ، فهو المؤرخ الحجة في التاريخ الأندلسي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النواحي . وقد بقيت قطعة من كتاب المقتبس لابن حيان خاصة بحكم الأمير عبد الله تصور هذه الناحية في إسهاب[1] . فثار من المولدين عبد الرحمن بن الجليقي ، واتخذ بطليوس دار مملكته وكان يدعو لعصبية المولدين على العرب ، واقتعد بكر بن يحيى بن بكر مدينة شنت مرية بكورة أكشونبة يدعو بمثل دعوة ابن الجليقي ، وكان جده رذلف عجمياً . وثار محمد من بني قسّي المولدين أمراء الثغر وبلغ به الحال أن تملك طليطلة . وثار كذلك السرباقي صاحب ابن الجليقي ونظيره في التمرد ، وكان أشد الثوار شوكة عمر بن حفصون وهو أيضاً من المسالمة ، هذا إلى ثوار آخرين من بيوتات البربر والعرب .

واشتعلت الفتنة بين العرب والمولدين بكورة البيرة واجتمع العرب إلى زعامة سوار بن حمدون القيسي ثم إلى سعيد بن جودي من بعده ، وترأس المولدين رجل يدعى « نابل » ونشبت بين العرب والمولدين ثورة أخرى بإشبيلية ، وهكذا ، حتى كان كل شيء ينذر بتصدع أمر الأندلس . ومن هنا نرى أن نواة الانقسام الذي تم بعد الفتنة البربرية كانت موجودة في تكوين الدولة نفسها . ولقد استطاع الناصر أن يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج ، وأن ينعم ابنه الحكم بثمرات السلم وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم . ولكن ما كاد المنصور بن أبي عامر يقبض على زمام الأمور حتى صرف همّه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل ، ومشى ابنه المظفر في آثاره ، ثم عاد الأمر إبان الفتنة إلى الفوضى واشرأبت الميول الانفصالية من جديد . هل كانت طبيعة التفكك ناشئة عن خلل في الإدارة الأموية ؟ هل كانت من كثرة الأعداء الخارجيين ؟ هل نشأت عن عدم الانصهار بين الأجناس المتباينة في الداخل ؟ هل للوضع الجغرافي أثر في كل ذلك ؟ هذه وغيرها

١ نشرت بتحقيق أنطونية (باريس ، ١٩٣٧)

أسئلة من حق المؤرخ أن يجد الأجوبة عليها ولكن هذه المقدمة الصغيرة تضيق عنها .

على أنّا يجب أن ننصف هؤلاء الأمويين في أشخاصهم وفي مدى إخلاصهم غير المصطنع ليمثلوا دور الحكام المسؤولين ، العارفين بحدود ما يجب عليهم نحو رعاياهم . فربما كانوا في جملتهم خير مثل للحكام الذين يعملون لخير الرعية دون أثرة واستبداد ، ويغلّبون الجانب الديمقراطي على جانب الحكم المطلق ، وينظرون إلى الأمور — في الأكثر — من خلال العدالة والتقوى أكثر من نظرهم إلى المصالح الذاتية ، ويقدمون جانب الشورى على رأي الفرد . وإذا استثنينا الحكم الربضي الذي ساءت سيرته في نظر الأتقياء لأنه أوقع بأهل الربض حين ثاروا عليه ، فإنّا نجد المصادر تفيض بالثناء على خصائص العدل في أولئك الحكام ، فكانوا يتحرون أحوال الرعية ، ويجلسون للمظالم ، ويقدسون حكم القضاء ، ويحاربون في أنفسهم ما قد يجدونه من هوى جامح — كان عبد الرحمن الداخل على سيرة جميلة من العدل [1] وكان هشام ابنه حسن السيرة متحيزاً للعدل [2] يحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في سياسته [3] . وكان يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال [4] . وكان الأمير محمد عظيم الأناة متنزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ولا يسمع من باغٍ ولا يلتفت إلى قول زائغ ، محبوباً في جميع البلدان مراقباً لمصالح الرعية . أما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله ، مشيعاً للصدقات ، محبّاً للخير وأهله ، كثير الصلاة ، دائم الخشوع ، شديد الوطأة على أهل الظلم

١ الجذوة : ١٠ .
٢ الجذوة : ١١ .
٣ النفح ١ : ١٦٠ .
٤ ابن عذاري ٢ : ٩٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجور ، وقد خصص يوماً في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره للنظر في الظلامات[1] . ومن خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الأمراء وغيرهم ، نستشف البساطة في تناول الأمور ، وقلة الانغماس في نعيم الدنيا ، أو إهمال أمور الرعية ، وقد ظل الأمر كذلك على درجات متفاوتة حتى انقضى عهد الأمويين والعامريين بقرطبة .

٣

ومع تردد السيادة السياسية بين الامتداد والتقلص ، كان هناك شيئان آخذان بالنمو المطرد ، وهما مدينة قرطبة نفسها في عمرانها وأبهتها ، والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية . وقد ساعدت طبيعة الأندلس وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية ونشاط تجارتها على ذلك ، كما ساعد عليه الاستمداد من المشرق في شؤون العلم والأدب والحضارة المادية . فكان التجار ينقلون مواد الحضارة المشرقية إلى الأندلس دون انقطاع . وفي أيام عبد الرحمن الثاني دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء من بغداد وغيرها . وعندما قتل محمد الأمين وانتهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه[2] . وبقدوم زرياب دخلت الأندلس الموسيقى والأغاني المشرقية كما دخلها كثير من صور الحضارة وتقاليدها وقواعدها . والتقت هذه الحضارة مع الثراء ورخص الأسعار والشغف بالعمران فأصبحت قرطبة في هذا العصر تنافس المشرق في روعة عمرانها وفي طمأنينة الحياة في ربوعها ، وبلغت الأوج في الاتساع والتحضر أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حتى

١ ابن عذاري ٢ : ٢٢٨ – ٢٢٩ .
٢ المغرب ١ : ٤٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن حوقل حين زارها في خلافة الناصر (٣٣٧) : « هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق »[1] . واشتهرت بمسجدها الجامع ، وبساتينها الكثيرة ، وكان لها من الأرباض واحد وعشرون . كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب ، وهي بهذا تتميز على سائر المدن الأندلسية .

وأخذت الموجة الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس . ومع أن أكثر المدن الأندلسية كان موجوداً قبل دخول العرب ، فإن أكثر المدن قد اتسع بقدوم المهاجرين وأخذ بحظ من الانتعاش الاقتصادي ، وبنى المهاجرون بعض المدن كالمرية وغرناطة وكثيراً من القلاع ، ولذلك فإن دور هذه المدن في الناحية الأدبية كان أقل من دور قرطبة لأن موجة التفاعل الحضاري كانت تسير وئيدة . ولم تتسع بحيث تكون عامة ، هذا إلى انجذاب بعض الناس إلى قرطبة لأنها دار الخلافة . ولما زار ابن حوقل بلاد الأندلس ذكر أن بها غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية ، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم إلى حصن ، فظال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد[2] .

ونشط المستوطنون في التعلق بالزراعة ، وجلبوا إلى الأندلس أنواعاً من المزروعات والفواكه المشرقية ، ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل ، كثيرة المبنى والثمار ، وإذا سافر المرء من مدينة إلى

١ ابن حوقل ١ : ١١١ .
٢ المصدر نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخرى ، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخلّلها قرى كثيرة نظيفة مبيضة الدور من الخارج ، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماء وربما مرّ في اليوم الواحد على أربع مدائن كبيرة عدا القرى والحصون[1] . وهذا جعل المنتوجات المحلية والمستهلكات اليومية رخيصة الأسعار ولولا سنوات من القحط والمجاعات لما شاب هذا الرخاء الأندلسي ما يعكره . وقد نوه ابن حوقل بالرخص والسعة والتملك الفاشي في الخاصة والعامة[2] . وأثبتت كتب الجغرافيا في تمييز كل بلد أندلسي بما فيه من الحاصلات النباتية والمعدنية والمصنوعات ، وكلّها يدل على ما يفيض عن حاجة أهلها .

٤

وإلى جانب هذا النمو الحضاري في المجتمع كان هنالك مظهر آخذ بالتقلص ، ذلك هو الروح العسكرية العربية . ولهذا سببان : الأول : محاولة الحاكمين أن يتخلصوا من العصبية التي كان يثيرها الجنس العربي على مرّ الزمن . وقد كانت تلك العصبية بين مضر ويمن في عهد الولاة (٩٢ – ١٣٨) من أسباب ضعف الحكم العربي حينئذ . فلمّا جاء عبد الرحمن الداخل . وقاومته اليمنية وأوقع بها ، استوحش من العرب قاطبة . وعلم أنهم على دغل وحقد ، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك . وأخذ يشتري الموالي من كل ناحية واستعان بالبربر ، واستجلبهم من بر العدوة واستكثر منهم ومن العبيد حتى كوّن جيشاً كبيراً[3] . ثم كان الحكم الربضي . فاستكثر أيضاً

١ النفح ١ : ٩٧ – ٩٨ .
٢ ابن حوقل ١ : ١٠٨ .
٣ النفح ٢ : ٧٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الخدم والحشم حتى بلغ مماليكه خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف منهم فرسان يسمون « الخرس » لعجمتهم[1] . غير أن العصبية لم تمت ، إذ كانت نواة الأجناد ما تزال قبلية ، وكانت الحاجة ماسة إلى إيقاظ هذه العصبية لمقاومة ابن حفصون الذي كان يمثل الانتفاضة « العجمية » بالأندلس . وفي عهد الناصر والحكم كثر الصقالبة ، وأصبحوا الحرس الخاص للخليفة ، حتى إذا جاء المنصور نكبهم وقضى على نفوذهم . ولكنه من ناحية أخرى أراد أن يضعف العصبية العربية فجزأ القبائل وجعل في الجند الواحد فرقاً من كل قبيلة ، فخفت الفتن القائمة على العصبية[2] . وأسقط المنصور زعماء العرب لئلا ينازعوه السلطة وجنّد البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد وأسرى الحرب واستدعى البربر ورتب من هؤلاء جميعاً جنده[3] . غير أن حكام الأندلس في محاولتهم القضاء على العصبية العربية أوجدوا عيوباً جديدة تسببت في القضاء على السيادة العامة في الأندلس وفي إشعال الفتنة بين أجناس متنافرة من البرابرة والمولدين وبقايا العرب والإفريقيين السود والصقالبة ، وعلى يد البربر خربت قرطبة في الفتنة .

أما السبب الثاني الذي أدى إلى ضعف الروح العسكرية فهو طبيعة الاستقرار الزراعي وحاجة السكان إلى الابتعاد عن الحرب للانصراف إلى الأعمال العمرانية ، بينما كان الحكام في الأندلس بحاجة إلى جيش قوي على قدم الاستعداد دائماً ، ولذلك ابتعد الأندلسيون — نسبياً — عن الحرب ، مما حدا بالخلفاء إلى اتخاذ جيش أكثره من العبيد والمرتزقة .

. . .

١ المغرب ١ : ٣٩ .
٢ النفح ١ : ١٣٩ .
٣ النفح ١ : ١٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

وقبل أن تنمو قرطبة نمواً بالغاً في أيام عبد الرحمن الناصر ومن بعده كان المظهر الغالب على حياة المدن الأندلسية هو الطابع الريفي . ومن مظاهر هذه الحياة الريفية : البساطة والخشونة والطيبة وعدم التصنع في المعاملات بين الناس والنبر بالألقاب والانتفاع من الجهد اليدوي والزراعي . وكان الكسب الحلال من الزراعة يجتذب إليه كثيراً من العلماء والأتقياء . ولذلك كثيراً ما نرى المحدثين والفقهاء في هذه الفترة يؤثرون حياة القرية . وكان من شأن الخلفاء أن يرسلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشف عن أهل العلم والخير منهم . فإذا احتاجوا إلى رجل في بعض المناصب أرسلوا في طلبه[١] . فمثلاً أرسل هشام بن عبد الرحمن في طلب مصعب بن عمران أحد الفقهاء الأتقياء ليوليه القضاء فوجده الرسول في ضيعته يعين زوجته على عمل الوشائع وهي تنسج في منسج لها[٢] . وكان محمد بن مسلمة الذي أصبح قاضياً في قرطبة متنزهاً عن الناس ملتزماً للبادية[٣] . وكان طلاب الحديث إذا سمعوا بهذا النوع من العلماء رحلوا إليه في قريته ليسمعوا منه ويكتبوا عنه — كان أحمد بن هشام القرطبي المحدث مستوطناً قرية احتبانة من عمل قبرة فكان طلاب الحديث أمثال ابن بشكوال والفرضي وابن المصعب يسافرون إليه لأخذ الحديث عنه[٤] . وحكى أحدهم أنه كان يختلف مع أصحابه إلى إبراهيم

١ قضاة قرطبة : ٣٩ .
٢ قضاة قرطبة : ٤٣ .
٣ قضاة قرطبة : ١٣٩ .
٤ الصلة : ١٩ .

ابن محمد بن باز إلى المنية فيقرأون عليه وهو يزرع والقفيفة في ذراعه[1] وكان بعض علماء اللغة كالهواري وخصيب يسكن الأرياف ، ويرسل الخلفاء لهؤلاء المتبدين يسألونهم في اللغة أو في شيء من أمور العلم والدين[2]

٦

وتميزت الحياة الاجتماعية في هذا المجتمع منذ البدء بالفهم الصحيح للمسؤولية الاقتصادية وتقدير الكسب والتدبير في موازنة الدخل والخرج ، على نحو قد يعده المشارقة بخلاً . ولكن هذا الوعي الجيد قد حمى البيئة الأندلسية من الكدية ، لسقوط الاتكال في نظرهم ، كما أبعد عنهم الاغراق في التصوف الاتكالي أو استحداث الديرات والتكايا . نعم أنشأ الحكم المستنصر داراً سماها دار الصدقة ، ولكن يبدو أن التعرض للصدقات في الأندلس كان قاصراً على كل محتاج معذور . أما القادر على الكسب فكان يتجه إلى حرفة تكفيه وتعينه على الحياة . ولذلك انتعشت روح التعاون هنالك . وهذه هي الروح التي يمثلها ابن الكتاني استاذ ابن حزم حين كان يقول لتلامذته : « إن من العجب من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة . أما يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والخياط يخيط له ، والجزار يجزر له ، والبنّاء يبني له ، وسائر الناس كلٌّ متولٌّ شغلاً له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ، أفما يستحي أن يكون عيالاً على كل العالم ، لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة ؟ »[3] . ويعلق ابن حزم على

---

١ الصلة : ٣٣ .

٢ الزبيدي : ٢٨١ والصلة : ٣٤ .

٣ رسائل ابن حزم : ٧٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا بقوله : « ولقد صدق ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له ، وأيّ كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس ؟ »[1] . ولذلك كان الأندلسيون يبعدون عن كثير من الأمور التي يصبغها المشارقة بلون مثالي . خذ مثلاً حال المؤدب وأخذه للأجر المسمّى « الحذقة » فقد كان المشارقة يختلفون حول أخذ الأجر على التعليم ، أما في الأندلس فلم يقفوا عند هذه المسألة ، لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ، يكفيه الاعتماد على بدوات الكرماء أو تقلبات الظروف[2] .

٧

وفي ظل هذا المجتمع كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية . ولا تقل المرأة الأندلسية عن المشرقية في مدى النفوذ السياسي . فكانت عجب ذات سلطان واسع في أيام هشام بن عبد الرحمن وظلت تسيطر كثيراً في أيام عبد الرحمن ابنه ، وكان لطروب جارية عبد الرحمن إدلال كثير عليه ولكنّا لا ندري مدى أثرها في الحياة السياسية . وقد نقم الناس على القاضي محمد بن زياد خضوعه لامرأته كفات[3] ، لا لأن هذا الخضوع كان مستهجناً في حد ذاته ، بل لأن القاضي يجب أن يكون فوق هذا المستوى . وفي أيام عبد الرحمن الناصر كانت رسيس مقربة إليه حتى إنّه جعلها تخرج معه في موكبه وهي تلبس قلنسوة وتتقلد سيفاً ، وشق قرطبة

١ . رسائل ابن حزم : ٨٣ .
٢ الزبيدي : ٢٧٨ .
٣ قضاة قرطبة : ٩١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على هذه الحال حتى بلغ الزهراء[1] ، ولا ننسَ ما كان لصبح من النفوذ في أيام الحكم وفي جانب من عهد ابن أبي عامر .

وتولت المرأة المناصب أيضاً . فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن وهي نحوية شاعرة بصيرة بالحساب عروضية خطاطة[2] . وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة في الخط[3] . وشارك بعضهن في رواية الحديث فكانت غالبة بنت محمد المعلمة تروي الحديث . وكذلك كانت فاطمة ، وشارك أُخريات في الشعر : ومنهن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجاتها ، وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة ؛ وصفية بنت عبد الله الريّي ، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي . والغسانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج في إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري[4] .

ولعل هذه المكانة التي بلغتها المرأة هي التي نبهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين في هذه المسألة . وكان من أوائل الذين أثاروا القول في هذه المسألة محمد بن موهب القبري جد أبي الوليد الباجي لأمه ، في الأيام العامرية ، فشنع الناس عليه في ذلك[5] . وقال ابن حزم في الإشارة إلى الجدل حول هذه المشكلة : « هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة ، وفي زماننا ، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة بالنساء جملة ، وبدّعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة

١ دقط العروس : ٧٣ – ٧٤ .
٢ الصلة : ٦٥٣
٣ الصلة : ٦٥٣ .
٤ الصلة : ٦٥٣ – ٦٥٧ ، والجذوة : ٣٨٨ وما بعدها .
٥ الجذوة . ٨٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى القول بأنّه قد كانت في النساء نُبوّة. وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك»[1].
وقد أبى ابن حزم نفسه أن يقبل إطلاق الحديث القائل بنقص الدين والعقل في المرأة في كل الأحوال، وقصره على نقصان حظّها في الشهادة وعند الحيض[2] «إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال وأتم ديناً وعقلاً غير الوجوه التي ذكر النبي (ص)»[3].

٨

إن كثيراً ممّا تقدم يمنح المجتمع الأندلسي لوناً قد يكون فارقاً إلى حدّ ما، ويقربنا كثيراً من الشعور بالتسامح إزاء الحياة ومظاهر النمو الحضاري. ولكنّا ما نكاد نقترب من الدائرة المذهبية والعلمية حتى نصطدم بروح بالغة من التشدد والتزمت؛ لقد دخلت المذاهب إلى الأندلس ثم اندحرت أمام مذهب مالك، فكان أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي قبل دخول بني أمية[4]، ويقال إن الذي أدخله هو صعصعة بن سلام (— ٢٩٢) وكان زهير ابن مالك البلوي فقيهاً على مذهب الأوزاعي حتى حين أخذ الناس يتحولون عنه[5]. ثم غلب مذهب مالك مع الزمن لسببين ذكر أحدهما ابن حزم وذكر الثاني ابن خلدون. أما ابن حزم فيقول: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة... ومذهب مالك عندنا بالأندلس. فإن يحيى

١ الفصل ٥ : ١٧.
٢ الفصل ٤ : ١٣١.
٣ الفصل ٤ : ١٣٢.
٤ ابن الفرضي ١ : ١٨١.
٥ المصدر نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلاّ بمشورته واختياره ولا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا[1]؛ ويقول ابن خلدون : إن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميَل لمناسبة البداوة[2] . ومن الصعب أن نحدد مَن هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس . فمن قائل إنّه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون لأنّه أول من أدخل الموطأ إلى بلده[3] ، ومن قائل إن الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطإ في أيام عبد الرحمن[4] . وفي ذلك الزمان رحل جماعة من أمثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج في أيام هشام بن عبد الرحمن فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر فيها رأيه وعلمه[5] . وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك . وكان بالبيرة سبعة سمعوا كلّهم من سحنون في زمان واحد[6] . وأصبح الفقهاء يدورون حول المدوّنة وكتاب آخر ألّفه العتبي الأندلسي ويسمى العتبية أو المستخرجة ، وضاقت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث مع أن الحديث أصل في مذهب أستاذهم ، إلا أنّهم شغلوا بالتفريعات والرأي . وكان أكثرهم لا يتجاوز رأي مالك وابن القاسم أو أشهب ، وأخذ بعضهم

١ النفح ١ ٠ ٣٣٢ .
٢ المقدمة : ٤٤٩ (ط . المكتبة التجارية بمصر) .
٣ النفح ١ : ٣٤٩ .
٤ ابن الفوطية ٣٤ .
٥ النفح ١ : ٣٥٠
٦ ابن الفرضي ١ ١٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتنقصون أهل الحديث . ويمثل بقي بن مخلد التحول إلى الحديث حينئذ ، فقد ملأ الأندلس حديثاً ورواية وانفرد بإدخال مصنف ابن أبي شيبة وكتاب الفقه للشافعي وغير ذلك . فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث وأغروا السلطان به . غير أن السلطان أيده في موقفه . ومن روايته انتشر الحديث بالأندلس . ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث وإسناد[1] ونشأ بها حفاظ مقدمون منهم خالد بن سعد القرطبي الذي كان المستنصر يقول فيه : إذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين فاخرناهم بخالد بن سعد[2] .

وتمذهب بعض الأندلسيين بمذهب الشافعي وبعضهم بمذهب داود الظاهري ، وجاء المذهب الخارجي مع بعض المهاجرين من إفريقية وكان النكارية هم الغالبين على خوارج الأندلس[3] ، وعرف بعضهم الاعتزال ومن أوائل القائلين به أحمد بن موسى بن حدير صاحب السكة الذي كان يقول : إن الله عاقل[4] ، وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة ويقول بالقدر[5] ، كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب ، وكان حكم ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم[6] . وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد . ولما مات خليل بن عبد الملك ابن كليب ، وكان مشهوراً بالقدر لا يتستر به ، أتى أبو مروان ابن أبي عيسى

١ ابن الفرضي ١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .
٢ ابن الفرضي ١ : ١٥٤ — ١٥٥
٣ الفصل ٤ : ١٩١ .
٤ الفصل ٤ : ٢٠٢ .
٥ انظر الفقرة التالية رقم ٩٠ .
٦ طوق الحمامة : ٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجماعة من الفقهاء وأخرجوا كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل[1] .

وكذلك كان منهم من اتبع المذهب الأشعري ، ومن زعماء هذا المذهب أبو الوليد الباجي الذي ناظر ابن حزم — كل هذه المذاهب لم تكن تنافس مذهب مالك حتى قام ابن حزم يناوىء المذاهب جميعاً وينشر القول بالظاهر ويدعو إلى التمسك بالنص الحرفي للكتاب والسنّة واستمداد الأحكام منهما وينكر التقليد للأئمة ويبطل الأقيسة الفقهية ، إلى غير ذلك من أمور جعلت مذهبه يوصف بأنه ظاهريّ ويسمى أتباعه أهل الظاهر .

غير أن الأندلسيين من وجهة عامة كانوا يعادون كل جديد عليهم حتى إنهم ثاروا على بقي بن مخلد — كما تقدم — ونسبوه إلى البدعة ورموه بالإلحاد والزندقة وخاطبوا الأمير محمداً في شأنه ، واضطر بقي إلى أن يتستّر خوفاً على دمه[2] . ووسم الفقهاء الأندلسيون كل من درس الفلسفة والمنطق وكتاب المجسطي بالزندقة وحرضوا عليه العامة . وتعقبوا أهل القدر من أتباع ابن مسرة وأحرقوا كتبهم واستتابوهم . وقد أراد ابن حزم — وهو الفقيه العالم — أن يحطم الحاجز القائم دون دراسة المنطق والفلسفة ، فعرض نفسه لهجوم الخصوم ، ولكن ابن حزم نفسه أدركه نوع من التدين جعله يقلل من قيمة كل علم لا يقرّب المرء من الله تعالى ، وحث في رسالتيه : التوقيف على شارع النجاة ومراتب العلوم على الانصراف لدراسة الشريعة . ولقي ابن حزم نفسه بسبب هجومه على فقهاء المالكية وإباحته دراسة المنطق والفلسفة وحدّته في الدفاع عما يراه صواباً — لقي شيئاً غير قليل من الاضطهاد

---

١ ابن الفرضي ١ : ١٦٥ .

٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدى إلى حرق كتبه . وكان الحسد بين رجال الدين من الأسباب التي تضيق الحرية العلمية . ومع الزمن تعدى الجدل أهل المذاهب الإسلامية وأصبح يقوم بين علماء المسلمين ورجال الدين من أهل الملل الأخرى .

٩

قد ألمعنا في الفقرة السابقة إلى ابن مسرة ، وشيء عن موقف أهل الأندلس منه ومن مذهبه ، ولا بأس أن نتحدث هنا عن الرجل وعن المذهب الذي جاء به إذ انّنا ، إذا استثنينا المذهب الظاهري الذي نادى به ابن حزم — وهو مذهب سني — لم نجد مذهباً آخر لقي من مقاومة الأندلسيين ما لقيه مذهب ابن مسرة .

مؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي ، قرطبي ولد سنة ٢٦٩ وتتلمذ على أبيه ومحمد بن وضاح الخشني . وفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر — أي سنة ٣٠١ على التحديد — خرج إلى المشرق فارّاً بنفسه ، لأنّه اتهم بالزندقة ، ودخل القيروان فلبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشني في مجلس أستاذه أبي جعفر أحمد بن نصر أحد تلامذة سحنون ، قال الخشني : « فسلم وجلس جانباً ، وأنا لا أعرفه . ولا أحد من المجلس ، فرأيته يقلب بصره في وجوه المتكلمين ، ويديل النظر فيما بينهم ، فعلِمَ من قد رسخ في الصنعة ، وعرف ما نحن فيه ، فلم أشك أنّه من أهل العلم . وما فطن بذلك منه غيري ، وغير فتى من أصحابي يعرف بربيع القطان ، وطال المجلس بنا على تلك الحال ، حتى أظهر الشيخ التحرك ، وأومأ إلى القيام . وتداعى أهل المجلس إلى النهوض ، فكرهت أنا أن أقوم حتى أعرف آخراً مَنْ الرجل الداخل علينا ، فثبتُّ . فلمّا خفَّ المجلس ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحول إليه أحمد بن نصر فقال له : يا شاب ، جلست منذ اليوم فهل من حاجة تذكرها ؟ فاندفع محمد بن مسرة بكلام مصنوع إلا أنّه حسن من الكلام جيد فقال : أتيتك مقتبساً من نورك ، ومستمداً بعلمك — إلى ما يشبه هذا من القول ، وأتى به شبيهاً بخطبة موجزة . ولا عهد لأحمد بن نصر بمن يخاطبه بهذا الضرب من الخطاب ، فجعل الشيخ ينظر إليه ويفهم عنه حتى أتى ابن مسرة على ما أحبّ أن يتكلم به ثم سكت . فكان جواب أحمد بن نصر له في ذلك كله أن قال له : يا شاب هذه الصفة هي في القبور ، رحم الله من كانت هذه صفته . فوضع ابن مسرة يديه في الأرض ثم قام وقمنا في أثره »[1] .

وذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج غير مرّة وزار قبر النبي عليه السلام بالمدينة ، وأقام فيها مدة يتتبع آثار الرسول ، فدله بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم فقصد إليها ، فإذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد ، قد شق في وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقي إلى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي (ص) في الصيف ، فصلى ابن مسرة في البيتين والسقيفة ثم قاس بشبره تلك الدار ، وبنى مثلها لسكناه ، لما عاد إلى الجبل بقرطبة[2] .

وكان يصحبه في رحلته هذه إلى الحج اثنان من معتقدي مذهبه وهما محمد بن حزم بن بكر التنوخي من أهل طليطلة ويعرف بابن المديني[3] وأيوب ابن فتح[4]، ومعهم أحمد بن غانم وكان أسنّ من ابن مسرة وحج معه مرتين[5]،

---

١ علماء إفريقية : ٢١١ — ٢١٢
٢ التكملة : ٣٦٥
٣ التكملة ٣٦٥
٤ التكملة : ١٩٩
٥ التكملة : ١١

ورافقه أيضاً محمد بن وهب المعروف بابن الصيقل وكان أصغر منه سناً[1] . ويروى أنّه اشتغل في الشرق بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً . فاختلف إليه الناس وسمعوا منه وانقسموا فيه فريقين ، فريق رآه إماماً في علمه وزهده وفريق طعن عليه ووصف مذهبه بالقبح وسوء المعتقد[2] .

على أي شيء يقوم مذهب ابن مسره ؟ يبدو من الأخبار القليلة التي تبقت لدينا عنه أنّه كان يجمع بين بعض مبادىء المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال . فلم يكن معتزلياً خالصاً ولا باطنياً خالصاً . فأما المبادىء الاعتزالية التي كان يقول بها فهي قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله[3] . ويقول ابن حزم : إن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر . وكان يقول إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وإن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه جملة وهو علم الكتاب — وهو علم الغيب — كعلمه أنّه سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك ، والثاني علم الحادثات ، وهو علم الشهادة ، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك ، فإنّه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[4] . وأما المبادىء الباطنية فإنّه بناها على آراء منسوبة لانبذوقليس ، وليست له ، وإنما هي بعض آراء فيلون الاسكندري وأفلوطين . ومن هذه الآراء المنسوبة لانبذوقليس الجمع بين معاني صفات الله وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد وأنّه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه

١ التكملة ٣٢١
٢ ابن الفرضي ٢ : ٤١
٣ المصدر نفسه .
٤ الفصل ٤ : ١٩٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكثر بوجه . . وتزعم الفرقة الباطنية أن لانبذوقليس رموزاً قلّما يوقف عليها[1] . وقد يستنتج ممّا جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنّه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس . وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول له[2] . وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية موجودة في تاسوعات أفلوطين وهي القول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية[3] .

واستطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة كثيرين وعاش معهم في عزلة وكان ، كما تصوره الروايات ، ذا قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس . كما أنّه ألف بعض الكتب في مذهبه منها كتاب الحروف . وكتاب التبصرة ، ويقول ابن الأبار إن ابن مسرة لم يكن يخرج كتاباً إلا بعد أن ينعقبه حولاً كاملاً ، فلمّا ألف التبصرة احتال صاحبه حي بن عبد الملك الذي كان يسكن معه في متعبده بالجبل فاستخرج كتاب التبصرة وانتسخ منه نسخة لنفسه ورد الأصل ، ثم أرى النسخة لابن مسرة وقال له : تعرف هذا الكتاب ؟ فلمّا تصفحه قال له : لا نفعك الله به ! ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد[4] . غير أن بعض كتبه كان معروفاً في الأندلس ، وقد رأى ابن حزم عدداً منها . وأثار ابن مسرة حوله بعض الخصومات الجدلية في المشرق وفي الأندلس .

١ القفطي : ١٣
٢ الفصل ٤ : ١٩٩
٣ بالنثيا : ٣٣٠
٤ التكملة : ٢٨٤ ٥ ٢٨٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فممن ألف في الرد عليه من المشارقة : أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي وأحمد ابن محمد بن سالم التستري ، وممن رد عليه من الأندلسيين ابن أبيض ، وقد جمع في الرد عليه كتاباً كبيراً سنيلاً أكثر فيه من الحديث والشواهد[1] وللزبيدى أيضاً كتاب في الرد عليه[2]. وللقاضي ابن زرب كتاب آخر قرىء عليه وأخذ عنه عدة مرات بقرطبة[3] . ولم يقتصر تأثيره على تلامذته الذين لقوه واستمعوا إليه بل إن هناك أناساً انحازوا إلى مذهبه دون أن يلقوه . منهم طريف الروطي وأضحى بن سعيد وكانا من أهل الزهد والخير[4]. وقد ألف بعضهم كتاباً في أخباره وأخبار أصحابه ينقل منه ابن الأبار في تكملته[5] .

أما أشهر تلامذته الذين صحبوه أو آمنوا بمذهبه دون صحبة — عدا الذين تقدمت الإشارة إليهم — فهم :

١ — أيوب بن سليمان إسماعيل الطليطلي (— ٣٤٣) وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له[6] .

٢ ، ٣ — الياس بن يوسف الطليطلي (— ٣٢١) وأخوه عون .

٤ — خليل بن عبد الملك (— ٣٢٣) تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان غاية في الزهد والورع وكان معلناً بالاستطاعة . مشهوراً بالقول بالقدر وربما كانت تأويلاته تفسر لنا تأويلات ابن مسره كقوله إن الصراط هو الطريق أي الإسلام والميزان هو عدل الله[7] .

١ الصله ٢٤٤
٢ الصلة ، ٤٦٥
٣ ابن الفرضي ٢ ، ٩٧
٤ التكمله ، ٣٤٦
٥ التكملة ١١
٦ التكملة ، ١٩٩
٧ ابن الفرضي ١ ، ١٦٥

٧،٦،٥– محمد بن فضل الله بن سعيد ، وحكم وسعيد ابنا مندر بن سعيد القاضي وكلهم تفقه بكتب ابن مسرة . وعن حكم يروي ابن حزم ويصفه بالصدق[١]

٨ – أحمد بن وليد (– ٣٧٦) من أهل بجانة يعرف بابن أخت عبدون وهو أحد النفر الذين استتابهم محمد بن يبقى[٢]

٩ – رشيد بن فتح الدجاج (– ٣٧٦) قرطبي ، صلى عليه محمد بن يبقى ويظهر أنه استتابه[٣] .

١٠ – أبان بن عثمان (– ٣٧٧) من أهل شذونة[٤]

١١ – عبد العزيز بن حكم الأموي (– ٣٨٧) كان مائلاً إلى الكلام والنظر وقد غض منه انتحاله لمذهب ابن مسرة .

١٢ – محمد بن مفرج المعافري ويعرف بالفتى (– ٣٧١) وكان يدعو إلى المذهب ولا يقف عند حد الاعتقاد به[٥] .

١٣ – ابن الإمام (– ٣٨٠) وكان لا يتستر في اعتقاده ، مولعاً بالتشريق في صلاته[٦] .

١٤ – محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي (– ٣٨٢) وأصله من جيان ، أشهد على نفسه – في النهاية – أنه غير معتقد لشيء من مذهب ابن مسرة[٧] .

١ التكملة ٠ ٣٧٨
٢ ابن الفرضي ١ ٦٦
٣ ابن الفرضي ١ ٠ ١٧٥
٤ ابن الفرضي ١ ٠ ٣١
٥ ابن الفرضي ٢ ٠ ٨٤
٦ ابن الفرضي ٢ . ٩٥
٧ ابن الفرضي ٢ . ٩٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعض الجيل الثاني من هؤلاء التلامذة هم الذين تعرضوا من جديد للمحاكمة . وأغلب الظن أن هذا حدث بعد وفاة الحكم المستنصر . أي حوالي سنة ٣٧٠ . عندما كان ابن زرب قاضياً . فقد اهتم هذا القاضي بالكشف عن أتباع ابن مسرة واستتابة من علم أنه يعتقد ذلك المذهب . وتاب على يديه منهم جملة . ثم خرج ابن زرب إلى جانب الجامع الشرقي وقعد هناك وأحرق ما وجده من كتبهم وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين[1] .

وآخر من نعرفه من أصحاب ابن مسرة هو إسماعيل بن عبد الله الرعيني وهو متأخر عن الجيل الثاني منهم . وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه « وكان من المجتهدين في العبادة . المنقطعين في الزهد » . وقد أحدث في المذهب أقوالاً سبعة فنفر عنه سائر المسرية وكفروه . إلا قليل منهم ومما أحدثه قوله إن الأجساد لا تبعث أبداً . وإنما تبعث الأرواح . وكان يقول : إن الإنسان حين يموت . تلقى روحه الحساب . ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإنه لا تعت إلا على هذا الوجه أبداً . وكان يقول : العالم لا يفنى أبداً . وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك . ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم. وينسب قوله إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال في كتبه. قال ابن حزم : ليس فيها لعمري دليل على هذا القول ولما برىء منه المسرية بقيت تتبعه ابنته متكلمه باسكه مجتهده وقال ابن حزم إنه (أي ابن حزم) عرض هذه الأقوال على ابن لإسماعيل فأنكر كل ذلك . قال . « ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل من يصمه بفهم منطق الطير وبأنه كان يخبر بأشياء قبل أن تكون فتكون . وهناك أمور لا شك فيها وهي أنه كان عند فرقته إماماً واجبة

١ الصلة . ٧٨ ويذكر أن ذلك حدث عام ٣٥٠ . ولكن التاريخ خطأ لأن ابن زرب أصبح قاضياً سنة ٣٦٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عمّ الأرض وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق . وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه — هذا أمر صحيح عندنا عنه يقيناً . وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط . وصحّ أنّه كان يقول بنكاح المتعة»[1] .

١٠

ولم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة . فإن لم يكن المسجد ، فبيت الأستاذ نفسه . وقد حدثنا ابن بشكوال عن أستاذ كان يقصده الطلبة في داره وهم نيف على أربعين تلميذاً ، وأنهم كانوا يدخلون داره في شهر نونبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفي وسط المجلس كانون في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفئه كل من في المجلس ، فإذا فرغ من تدريسهم قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبد[2] .

وكان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين ، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقي في الغالب ، ولذلك هاجرت كتب المشارقة إلى الأندلس بكثرة ، وكثرت رحلة الأندلسيين إلى المشرق في طلب العلم ، وكان الواحد منهم يشرف بين بني قومه حين يروي

١ الفصل ٤ : ١٩٩ — ٢٠٠

٢ الصلة ١ : ٤١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق . وكتاب ابن الفرضي والصلة والتكملة وما أشبهها معرض لهذه الهجرات الأندلسية على مرّ الزمن . كما أن فيها صورة لما كان يهاجر من الكتب إلى البلاد الأندلسية تباعاً . وتستفيض هذه الناحية حتى تعز على الحصر ، وتجد النشاط إلى جمع الكتب المصححة المحررة عامّاً بين المسلمين في إسبانية ، ولم تكن قرطبة وحدها مركزاً للمكتبات الكثيرة وإن تميزت عما عداها في ذلك بل كانت تلك المكتبات في المدن الأخرى مثل طليطلة وإشبيلية وفي القرى الصغيرة أيضاً . وقد ترك ابن خير في فهرسته أيضاً صورة أخرى للكتب التي هاجرت إلى الأندلس ، ويحسن بنا هنا أن نشير إلى رسالة ابن حزم التي قارن فيها بين بعض المؤلفات الأندلسية والمشرقية في بعض الفنون ، وكلها ممّا اطلع عليه ووقع في يديه[1] .

ولذلك وسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ، وإليه يلتمت الأندلسيون في تجارتهم ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج . وقد تنمو روح المنافسة مع الزمن بين المشرق والمغرب ولكنها لن تستطيع أن تكمل استقلال الأندلس في شؤون الحضارة والأدب بل إنها ساعدت على توسيع دائرة التقليد . وقد حاول الحكم المستنصر ثم ابن حزم أن يرسما للأندلس حدوداً ثقافية ، وأن يقفا بها على مستوى المشرق ، ولكن تقديس الثقافه والأدب المشرقي ظل حاداً ساطعاً . ومن الخطإ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية لأنّنا ندرس أدباً يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب ، فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان

١ انظر عن اهتمام الأندلسيين بالمكتبات مقاله للأستاذ حولياں ريبيرا نشرته معهد المخطوطات المجلد ٤ ، الجزء الأول والثاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التشابه أيضاً محتوماً . نعم كان الشعور « بالأندلسية » أو « المعربية » ينمو مع الأيام . وكانت البيئة تعمق خصائصها في الخلق وطرق الحياة ، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات واللهجة والأمثال . ولكن التعبير — لكن صورة الأدب الذي ندرسه ظلت أوثق شيء صلة بالمشرق . وإذا كان من الخطإ أن نقف أبصارنا على صورة الاستقلال الذاتي في الشخصية الأندلسية ، فمن الخطإ أيضاً ألا نرى في الانتاج الأندلسي إلا صورة مشوهة من أدب المشارقة .

الشعر الأندلسي في هذا العصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي

قد يذهب بعض الدارسين إلى أن لفظة « أندلسي » حين تتخذ صفة للأدب من شعر ونثر ، تشير إلى نتاج أجيال ولدت في الأندلس ، وتشربت خصائص البيئة الأندلسية بالولادة والنشأة ، ونقلت إلى حدّ ما سمات تلك البيئة فيما قدّمته من صور التعبير . وليس هذا التحديد خاطئاً ، ولكنّه حين يوضع موضع الاختبار يعجز عن استيعاب الحقيقة كاملة . ولو ألقينا على أنفسنا الأسئلة الآتية : هل يدرس ابن هانىء بين شعراء الأندلس ؟ هل يعد نتاج أبي علي القالي مشرقياً ؟ هل يعد الحشني قيروانياً ؟ — لو فعلنا ذلك لاتضح لنا أن التحديد السابق للفظة « أندلسي » قاصرٌ تماماً عن الوفاء بمعنى « الأندلسية » في إحاطة وشمول ، وبخاصة في هذا العصر الذي أطلقنا عليه اسم « عصر سيادة قرطبة » .

وحين عرضت هذه المسألة لابن حزم الأندلسي قال : « وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين — دون محاشاة أحد — بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها ولم يرحل عنها رحيلَ تركٍ لسكناها إلى أن مات . . . فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به ، **فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سوانا** ، والعدلُ أولى ما حُرِصَ عليه ، والنّصَفُ أفضلُ ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعي إليه . . . »[1] . ومهما يكن نصيب هذا التفسير الذي ارتآه ابن حزم من الوجاهة والسداد ، فإن اختياره له كان يحقق أمرين هامين في نظره : أولهما أنه كان يعلم أن الثقافة الأندلسية حتى عصره — ومن ضمنها الأدب — كانت نتاج جهود شارك فيها عدد غير قليل من المهاجرين الذين ألفوا في موضوعات أندلسية أو واكبوا أحداث الأندلس ، أو أرادوا بما كتبوه خدمة الطلاب الأندلسيين ، ولهذا كان استثناء هذه الحركة الثقافية أمراً غير طبيعي فضلاً عن أنه يحرم الأندلس جهودَ أناسٍ عاشوا فيها حتى وفاهم الأجل هنالك . وثاني الأمرين أن ابن حزم كان ينظر إلى بعيد ، وذلك أنه حين يعدّ المهاجرين إلى الأندلس — دون تركٍ لها — أندلسيين فإنّه يشمل بذلك جميع الداخلين إليها منذ بداية الفتح وبذلك يمنح الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي صفة من القدم والعراقة ويجعل للأدب الأندلسي خاصة « موروثاً » أصيلاً يفيء إليه . ولهذا فإنه حين تحدث عن شعراء الأندلس قال : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره **فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على** طريقة المحدثين »[2] وجعونة هذا الذي ذكره من الطارئين الأوائل ، وكان فارساً شجاعاً يلقبونه « عنترة الأندلس » . ولم يكن يقيم في مكان معين وإنما كان يتنقل في النواحي ويحلّ أكناف قرطبة . وقد هجا الصميل بن حاتم وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري — في عهد الولاة — وكان الصميل من شيوخ القيسية ومن ذوي النفوذ البعيد في الأندلس . فلما ظفر به الصميل عفا عنه فأصبح مدّاحاً له . فأقسم الصميل ألا يراه إلا أعطاه

١ من رسالته في فضل الأندلس ، انظر ملاحق هذا الكتاب

٢ النفح ٢ ٧٧٥ وانظر ترجمة جعونة في جذوة المقتبس ١٧٧ والمغرب ١ ١٣١ وما بعدها ، وابن حزم في الملاحق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما حضره – مثلما كان يفعل هرم بن سنان مع زهير بن أبي سلمى – وهذا كان أبو الأجرب يعتمد إغباب لقائه فلا يزوره إلاّ في العيدين ، وقد توفي حعونة قبل قيام الدولة الأموية . ولم يبق لدينا من شعره ما يصوّر مذهبه العام وطريقته ولكن القليل الباقي يدل على أنه كان كما قال ابن حزم شعراً بدويّ السمات . فمن ذلك قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل عالٍ ورأسي ذو عدائر أفرعُ
والعيشُ أغيدُ ساقطٌ أفنانه والماء طيّبُهُ لنا والمرتعُ

ولم يذكر ابن حزم من واضعي أسس الموروث الشعريّ في الأندلس سوى جعونة الكلابي . ولا ندري لم أغفل ذكر شاعر آخر كان ايضاً من الطارئين في عصر الولاة وهو أبو المخشّى عاصم بن زيد[1] . وأصله من نصارى الحيرة ، ولذلك كان خصومه من الشعراء يعيرونه بالنصرانية في هجائهم له . وقد امتدّ به العمر حتى أدرك الدولة الأموية ومدح سليمان بن عبد الرحمن الداخل فظن هشام بن عبد الرحمن أخوه أنه يعرّض به في بعض شعره فعاقبه عقاباً شديداً . قيل إنه قطع لسانه ، وقيل إنه سمل عينيه ، والثاني أصحّ لأنه يتحدث في شعره عن العمى . وقد دفع له الأمير عبد الرحمن الداخل دية عينيه مضاعفة وأجازه بألفي دينار وعنف ابنه هشاماً على فعلته . ثم إن هشاماً نفسه عطف عليه ودفع له دية أخرى مضاعفة ؛ وشعره أيضاً من النسق البدوي ، ومن نماذجه قوله :

وهمٍّ ضافني في جوف يمٍّ كلا موجيهما عندي كبيرُ
فبتنا والقلوبُ معلقاتٌ وأجنحةُ الرياح بنا تطيرُ

١ ترجمة أبي المخشى في المغرب ٢ : ١٢٣ والجذوة ٣٧٧ وابن القوطية ٣٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن شعره في العمى :

خضعت أمُّ بَناتي للعِدا أن قضى اللهُ قضاء فَمضى
ورأت أعمى ضريراً إنّما مشيهُ في الأرض لمسٌ بالعصا
فاستكانتْ ثمَّ قالتْ قولة — وهي حرَّى — بلعت مني المدى
ففؤادي قرحٌ مِن قولهـــا ما من الأدواء داء كالعمى

وقد مات أبو المخشّى أيام الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦) وآخر شعره قوله :

أمُّ بنياتي الضعيفِ حويلهـــا تعولُ امرءاً مثلي وكان يعولها
إذا ذكرت ما حالَ بَيْني وبينَها بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

وكان لأبي المخشّى ابنة شاعرة اسمها حُسّانة تعدّ من أولى الشواعر اللواتي اشتهرن بالأندلس ، وقد أشبهت أباها في قوّة العارضة ، وكانت جريئة لا تقبل الضيم ، فاستغلت مقدرتها الشعرية في الدفاع عن حقوقها . فلمّا مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وكانت لم تتزوج بعد ، تخبره أنها أصبحت وحيدة ، وأنها تعتمد على رعاية الحكم لها :

أنتَ الإمام الذي انقاد الأنام لَهُ وملّكته مقاليدَ النُّهى الأممُ
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً آوي إليه ولا يعروني العدمُ

فأمر الحكم بإجراء مرتب لها ، وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بجهاز حسن ، ووقع لها الحكم بخطه تحرير أملاكها ، فلمّا توفّي لحقها بعض الضيم من والي البيرة جابر بن لبيد ، فوفدت على الإمام عبد الرحمن بن الحكم وشكت إليه جابر بن لبيد ، وكان فيما قالته :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ذي النّدى والمجد سارت ركائبي ... على شحط تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعي إنّهُ خيرُ جابر ... ويمنعني من ذي الطلامةِ جابر
فإنّي وأيتـــامي بقبضة كفّهِ ... كذي ريش آضحى في مخالب كاسر
جَدير لمثلي أن يُقال مروعة ... لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاهُ الحيا لو كان حيّاً لما اعتدى ... عليَّ زمان باطش بطش قادر

وأبو العاصي هو الحكم الأمير ؛ ولمّا سمع عبد الرحمن شعرها ورأى خطَّ والده أخذه فقبّله وقال : تعدّى ابن لبيد طوره حين رام نقض رأي الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، ووقّع لها بمثل توقيع أبيه وأمرَ ابن لبيد بتنفيذ ما أجراه[1] .

وإذا نحن تجاوزنا هذه النماذج المبكرة الطارئة ، وجدنا أن الشعر الأندلسي الذي رسّخ أصوله أناس نبتوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود سنة ٢٠٠ هـ . وهذه حقيقة هامة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها والمجالات التي كان يرودها ؛ فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكوّن حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء إلى المشرق فقد اتخذوا **شعر المحدثين** مثالاً يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أي أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو الأنموذج الكبير الذي استوحوه في أشعارهم . وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي مستمرّ بأن الشعر العربي الذي وصلهم من المشرق يمثل مذهبين : المذهب

١ نفح الطيب ٥ : ٣٠٠ (ط . مصر ، ١٩٤٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديم والمذهب المحدث ، وذلك هو معنى قول ابن حزم في شعر جعونة : « فهو جارٍ على مذهب الأوائل » ، وقول الزبيدي إن الرباحي نظم قصيدة في الرثاء على مذاهب العرب[1] ، وقولهم إن قصيدة الزبيدي في رثاء شيخه القالي « جزلة الألفاظ كثيرة الغريب صانعها صوغ فحول العرب »[2] ؛ ولو سألتهم تحديد الفرق بين مذهب الأوائل ومذهب المحدثين ، لم يكادوا يضعون فروقاً واضحة ، ولكنهم كانوا في أغلب الظن يعنون أن شعر الأوائل أكثر جرياناً على الطبيعة وأحفل بالجزالة العفوية وبالغريب وأن شعر المحدثين يعتمد كثيراً على الاستعارات والتشبيهات ويشوبه أحياناً تكلف لا يخفى في طبيعة الصياغة .

وحين أخذ الشعر الأندلسي في التكوّن كانت هناك عوامل كثيرة تسعف على تكوّنه على ذلك النحو ، وفي طبيعة التفاعل الثقافي المستمرّ بين المشرق والأندلس ما يفسّر كثيراً من مظاهر ذلك الشعر ، وفي حاجة البيئة نفسها عامل آخر ، ولكن البحث في مثل هذه العوامل العامة يشبه الضرب في تيهٍ لا حدود له ، فلنقتصر على ثلاثة عوامل كانت ذات أثر بالغ في تكوين ذلك الشعر وهي : جهود طبقة المؤدبين ، وحركة الغناء وتطوّره ، والنهضة الثقافية في الأندلس ، فمن خلال الحديث عن هذه العوامل سنلمّ بالتفاعل الثقافي بين الأندلس والمشرق ونتصوّر مدى انفتاح البيئة على ما تقبلته من ضروب ذلك الشعر .

(١) جهود طبقة المؤدبين وأثرها في نشأة الشعر والمقاييس النقدية :

وقد كان القائم بأمر هذا الشعر المحدث وتقريبه إلى دارسي الأدب طبقة من المؤدبين ، ارتحل أكثرهم إلى المشرق ، واغترف ممّا فيه من علم وأدب ، وعاد يدرّس في جامع قرطبة ، وقرطبة يومئذ « دار القوم » ، فإلى هؤلاء

---

١ طبقات الزبيدي : ٣٣٩

٢ اليتيمة ٢ : ٧١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإلى المهاجرين من طلاب الحاجات ، وإلى تشجيع الحاكمين يومئذ . يعزى الفضل في إدخال ضروب الثقافة المشرقية بلاد الأندلس ، من حديث وفقه ولغة وشعر وسير . وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت بصحبتهم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والرياشي وأبي حاتم وابن الأعرابي وكتابا الفرش والمثال في العروض للخليل بن أحمد وكتاب يعقوب بن السكيت في إصلاح المنطق ومؤلفات ابن قتيبة وأبي عبيد القاسم بن سلام ، كما كان ثابت النحوي وابنه قاسم أول من أدخلا كتاب العين للخليل[1] . أمّا في الشعر فإن محمد بن عبد الله الغازي (— ٢٦٩) جلب الأشعار المشروحات كلها[2]. وهاجر عباس بن ناصح لما سمع بنجوم أبي نواس ، وروى شعره[3] . ويجب أن ننوه هنا بمقدار ما أحرزه شعر أبي تمام من قبول في البيئة الأندلسيه ، فقد توفر على نقله اثنان من المؤدبين هاجرا إلى المشرق ورویاه عن صاحبه وأقرءاه بالأندلس وهما عثمان بن المثنّى النحوي[4]. ومؤمن بن سعيد[5]. وللاول منهما قصة طريفة : فيقال إنّه اجتمع مع أبي تمام في مركب ببحر القلزم فأنشده أبو تمام شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ مَنْ مَشَى فَتَعَثَّرَتْ في كُنْهِهِ الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر . فقال له ابن المثنّى : شعر حسن لولا أنّه

١ راجع في هذا صفحات مختلفة من طبقات الزبيدي : ٢٧٥ — ٣٣١ وابن الفرضي ١ : ٧٤ ، ٣٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ و ٢ : ٣١

٢ طبقات الزبيدي : ٢٨٩ وابن الفرضي ٢ : ٢٤

٣ طبقات الزبيدي : ٢٨٤ — ٢٨٥

٤ طبقات الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦

٥ المغرب ١ : ١٣٢

لا ابتداء له ، فوقذت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كَمْ حلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه حبيب في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجل خطره فكان يؤثره ويعرف له فضله ، وكان أول من أدخل شعره [1] وأقرأ أبو عبد الله الغابي ديوان أبي تمام وعنه أخذه أبو العباس الطبيخي [2] وهذا الثاني شرحه كما شرح شعر صريع الغواني [3] وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بانتساخ شعر حبيب وجمع لذلك جماعة من أدباء الأندلس يومئذ ، لتحقيق ذلك [4] ، وإزاء هذه العصبية لأبي تمام وجد أيضاً من يتعصب للبحتري ويدين بتفضيله . وهذا كلّه ينبىء عما كان للشعر المحدث من مقام بين عرب الأندلس ، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الذوق الأندلسي قد ألف هذا النوع من الشعر ، وجعله مقياساً للجودة ، ولم يألف ما عداه كثيراً ، وأصبح المتأدبون هنالك يضعون خطاً فاصلاً بين طريقتين في الشعر : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، فيقولون مثلاً إن فلاناً الشاعر كان أكثر أشعاره على مذاهب العرب [5] ، وكانوا هم أميل إلى تفضيل ما جرى على مثال الشعر المحدث ، حتى إن الرباحي الشاعر (— ٣٥٨) حين نظم قصيدة في الرثاء ، وبناها على مذاهب العرب ، وحرج فيها على مذاهب المحدثين ، لم يرضها

١ التكملة : ١٠ — ١١
٢ طبقات الزبيدي : ٣١٥
٣ المصدر السابق : ٣٢٩ وابن الفرضي ٢ : ١٥٩
٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٦ — ٣٠٧
٥ طبقات الزبيدي : ٣٣١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العامة ولم يجد من يعجب بها إلاّ أبا علي القالي[1] ومن يذهب في طريقته .

فعلى أيدي هؤلاء المؤدبين تم ، إذن ، تهيء من تبلور الذوق الأندلسي . بقبول ما يقبل ورفض ما يرفض . وفي مجالس تدريسهم تكونت نواه حركة نقدية سادجة . فهم الذين كانوا يشرحون الشعر لطلبتهم ويتكلمون في معانيه ويقربونها ويضربون الأمثال فيها . ويتتبعون ما فيها من المآخذ اللغوية والنحوية . ومما يلفت النظر أنهم كانوا يتدارسون شعر شعرائهم كما يتدارسون شعر المشارقة . فكان عباس بن ناصح ، وهو أحد هؤلاء المؤدبين . ومذهبه في شعره مذهب العرب الأوَل في أشعارهم . كلما ورد قرطبة ، جلس في جامعها يقرأ على الطلبة ما كان نظمه من شعر وفد مرة على قرطبة فجاء أدباؤها للأحد عنه فمرت عليهم قصيدته :

لعمرُكَ ما البلْوَى بعارٍ ولا العَدَمْ إذا المرء لم يَعْدَمْ تُقى اللهِ والكرمْ

حتى انتهى إلى قوله :

تجافَ عن الدنيا فما لِمُعَجِّزٍ ولا حازمٍ إلا الذي خُطَّ بالرَّ م

فاعترضه يحيى الغزال وقال : وما الذي يصنع مُفَعِّلٌ مع فاعل ؟ قال : فكيف تقول أنت ؟ قال : تجاف عن الدنيا فليس لِعاجزٍ ، فاستحسن عباس ذلك منه وقال « والله لقد طلبها عملك ليالي فما وجدها »[2] .

وأنكر على عباس أيضاً في مجلس أحد النحويين أنه حفّف ياء النسب في قوله[3] :

١ المصدر نفسه ، ٣٣٩

٢ المغرب ١ . ٣٢٤

٣ طبقات الزبيدي ٢٧٨ — ٢٧٩

يشهدُ بالإخلاصِ نوتيّها للهِ فيها وهو نصرانيْ

فاحتج عباس على المنكرين بقول عمران بن حطان :

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ وإن لقيتُ معدّيّاً فعدنانيْ

وكاد الذوق في هذه البيئة يجمع على أن الشعر إنّما يتقدم لغرابته وحسن معناه ، وأن من خير الشعر وصف أبي تمام للقلم[1] لما فيه من غرابة . على أنّنا يجب ألا نغلو في تقدير ما كان يحسنه هؤلاء المؤدبون ، فإنّهم — في الأكثر — كانوا سطحيين حتى في ميدانهم من لغة ونحو . قال الزبيدي يصفهم : « وذلك أن المؤدبين إنّما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية »[2] ، وهذا كلام يصدق عليهم حتى منتصف القرن الرابع ، على وجه التقريب .

وقد ساعد بعض المهاجرين من غير الأندلسيين على ترسيخ أثر المحدثين في البيئة الأندلسية مثل إبراهيم بن سليمان الشامي الذي دخل الأندلس في أخريات أيام الحكم بن هشام ، وكان قد أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي العتاهية[3] . ومثل أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الذي لقي من الشعراء أبا تمام والبحتري ودعبلاً وابن الجهم ، وقدم الأندلس في إمارة محمد بن

١ المصدر السابق : ٣٠٧ ووصفه للقلم من قصيدة يمدح بها ابن الريات وأوله

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

٢ طبقات الزبيدي : ٣٣٦ — ٣٣٧

٣ النفح ٢ : ٧٤٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الرحمن ، وعنه رواية لشعر أبي تمام بالأندلس[1] .

(٢) حركة الغناء وأثرها في تكوّن الشعر الأندلسي[2] :

وكان الغناء من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية ، فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر دو قدره على توجيه الشعر وتحديد قوالبه ، وقد كاد اعتماد الأندلس يكون كلياً على التلاحين المشرقية ، وكان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجواري المشرقيات في هذه الناحية ، ويبذلون في استقدامهن الأموال الكثيرة ، فابتاع عبد الرحمن الداخل جارية تسمى العجفاء وكانت تغني بالمدينة عند أحد موالي بني زهره ، كما اشترى عبد الرحمن نفسه جاريتين مدنيتين أيضاً هما فضل وعلم ، وأضاف إليهن جاريه رابعه بشكنسية اسمها قلم ، وكان يؤثرهن لجوده غنائهن ورقة أدبهن . وهاجر في أيام الحكم بن هشام اثنان من المغنين المشارقة هما علون وزرقون[3] .

ويعد الحكم بن هشام من أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء ، وكان لديه عدد من الجواري المغنيات منهن عزيز وبهجة (أو مهجة) وعاتب ، وكان هو يقترح عليهن الأشعار التي يغنين فيها ، كما كان بعضهن ينظم الشعر ويلحنه ، وقد نظمت عزيز مرة هذه الأبيات :

قد تقضى النهار إلا بقايا ... من سُعاعٍ مخلّق للأصيل
وأتانا الظّلام من قبل الشر ... قِ فأهلاً به بخير نزيل
دام هذا وذا بطول بقاء ال ... حكم السّيد الفتى المأمول

١ المصدر السابق ٢ ٧٥٥ – ٧٥٦
٢ انظر بحثاً لنا عن أخبار الغناء والمغنين بالأندلس (مجلة الأبحاث السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣) .
٣ انظر النفح ٢ . ٧٥٨ – ٧٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأعجب الحكم بشعرها وأمرها فعملت فيه لحناً أجازها عليه بمال ومتاع . وجمع الحكم يوماً جواريه وأمرهن أن يغنين في شعر الفرزدق :

فقالوا إن عرضت فأغنِ عنا دموعاً غير راقئة السجام
فكيف إذا مررت بدار قومٍ وجيران لنا كانوا كرام
أكفكف عبرة العينين مني وما بعد المدامع من ملام

فعملن فيه أصواتاً وكانت مهجة أكثرهن إجادة فقال لها . اقترحي حكمك ، فقالت : ألا يغنين اليوم إلا من أصواتي . فأمرهن بذلك وأمرها بأن تلقي عليهن حتى حفظن ذلك عنها .

وكانت هجرة الكتب المشرقية ناشطة في أيام الحكم المذكور ، ومرة وصلت مجموعة من الكتب عرضت عليه فرمى بطرفه ديواناً منها قد ضمّ شعر المقلين الثلاثة الذين فضلوا في الجاهلية ومنهم المسيب بن علس . فأخذه الحكم بيده وقرأ فيه قصيدة للمسيب مطلعها :

بان الخليطُ ورقّعَ الخرقُ ففؤاده في الحيّ معتلقُ

فأمر سليماً مولى ابنه المغيرة أن يغني أبياتاً منها فصنع فيها صوتاً في مزموم الرمل فأجازه بمطرف خز بنفسجي كان عليه مبطناً بالفنك وأمر له بمائتي دينار .

وكان المغيرة بن الحكم يشبه أباه في حبه للغناء وفي الإقبال عليه وتشجيعه ، وكانت لديه من الجواري المغنيات واحدة تسمى رغد كما كان سليم مولاه من مشهوري المغنين .

ويستنتج من الأخبار التي وصلتنا عن هذه الطبقة من المغنين والمغنيات أن كل محسن منهم كان يستقل بطريقته في الغناء ، وأن كل واحد كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتقاضى جرايات محددة وجوائز أخرى في بعض المناسبات ، ومن الطريف أن الإقبال على تلحين الأشعار القديمة — أشعار العرب الأوائل — كان أكثر من الإقبال على تلحين الأشعار المحدثة ، وقد عددت ما غناه جواري الحكم وابنه المغيرة فوجدته يتضمن أربعة أصوات لابن الرومي وصوتين لكل من جرير والقطامي ودي الرمة وعمر وأبي تمام وصوتاً في شعر كل من عروة ابن حزام ونصيب والبحتري والفرزدق ومسلم وابن الدمينة والحطيئة والمسيب والصمة القشيري وأبي دهبل الجمحي . ووجدت أن بعض الأصوات التي كانت تغنى بالأندلس قد عنيت بالمشرق — غناها معبد أو مالك أو ابن سريج . وأن جهد المغنين والجواري بالأندلس لم يتعدّ التقليد المتقن للصوت الأصلي أو التحوير الجزئي في بعض نغماته[1] .

ثم دخل زرياب الأندلس هو وأساؤه وجواريه فمحّى على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه في الغناء والآداب العامة . وكان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلي فأبعده حسد أستاذه له عن بغداد ، فطلب حظّ نفسه في بلاد بعيدة . وكاتب الحكم بن هشام بالقدوم عليه ، فسر الحكم بذلك وأرسل لتلقيه معنياً يهودياً كان عنده اسمه منصور . ولكن الحكم توفّي قبل أن يصل زرياب . ولم يكن خليفته عبد الرحمن بأقلّ ميلاً منه إلى هذا المغني الجديد فحثّه على القدوم ، وأجرى عليه راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار ، وجعل له وظيفة سنوية أخرى ورسماً في كل عيد ، وكان كلّما غناه وأطربه وهبه مالاً غير الذي فرضه له ، وأقطعه أيضاً من الدور والمستغلات والضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار . وزاد زرياب في أوتار عوده وتراً خامساً . واخترع له مضراباً اتخذه من قوادم النسر معتاضاً به من مرهف الخشب . وجعل للغناء مراسيم ،

١ انظر البحث الذي أشرنا إليه في الغناء .

فكل مغنٍّ لا بد من أن يبدأ بالنشيد أول شدوه ، بأي نقر كان ، ويأتي إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهازيج ، وهذا ما يسمّى بالنوبة الغنائية وهي تعتمد على التنويع في الألحان . وأخذ في تعليم الغناء واختبار صلاحية الأصوات ، وتلقف أبناؤه وبناته وجواريه صناعته وأشاعوها في الأندلس ، وكان ابنه عبد الله خير أبنائه صوتاً ، ويتلوه عبد الرحمن ، أما قاسم فكان أحذقهم غناءً ، وعلّم جارية له تسمى منفعة أحسن أغانيه ثم أهداها لعبد الرحمن ابن الحكم ، أما حمدونة ابنته فكانت محسنة لصناعتها متقدمة فيها على أختها علية ، لكن عمر علية طال بعد أختها حمدونة ولم يبق من أهل بيتها غيرها فكانت مرجعاً لمتعلمي الغناء ، وإليها يشير زيادة الله الطبني بقوله يصف طائراً مغرداً :

أدنت إليّ صباباتي مغرّدة أذكى الجوى بين أضلاعي ترنمها
كأنّما مكثت في عشّها زمناً علية بنت زرياب تعلمها[1]

وممن خرّجهن أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل وقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول هذا الغناء المشرقي فكان عباس بن فرناس الشاعر مجيداً له ، وكان لعقيل بن نصر الشاعر أغانٍ يجري فيها مجرى الموصلي[3] . وألف أسلم بن أحمد بن سعيد كتاباً في أغاني زرياب[4] إذ أصبح لزرياب طرائق مخصوصة في هذا الفن يتناقلها الناس .

١ كتاب التشبيهات : ٦١ .
٢ انظر ترجمة زرياب في النفح ٢ : ٧٤٩ وما بعدها ، ويجد القارىء ما استحدثه زرياب في الآداب العامة والازياء هنا مفصلا .
٣ الجذوة : ٣٠٤
٤ الجذوة ١٣٧ ، ١٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتلقانا في هذه الفترة أيضاً شخصية الراء . وهو رجل لا يستغنى عنه في الحفلات والأعراس، وقد كان من مشهوري الزامرين النكوري الذي كان يزمر لعبد الرحمن الناصر . ومن زيه أن يلبس قلنسوة وشي وثوباً من الخز ، وموضعه من الناس في وسط الحفل[1]. ومنهم ابن مقيم الزامر وكان طيب المجلس صاحب نوادر[2]. ومن الطنبوريين زربوط الطنبوري الذي قتل هو وقنبوط الملهي في وقعة قنتيش (قنطيش) أيام فتنة البربر مع سليمان المستعين[3] ، وقد كان هؤلاء الزامرون ينغّمون الألحان السائرة في أحداث مشهورة لأنها تجد إقبالاً من الجماهير . وفي تلاحين زرياب وطرائقه في النوبة قد نجد الأساس الذي انبثق عنه الموشح من بعد . في التنغيمات الشعبية التي كان يرددها الزامرون قد نجد أصول الأزجال .

وقد وجد الغناء بالأندلس قبولاً يكاد يكون شاملاً ولم يتحرج فيه قوم حتى لقد توفّر عليه جماعة من أبناء الطبقة الارستقراطية . ويحدثنا ابن حزم أن المطرف ابن الأمير محمد كان عالماً بالغناء . وكان له أخوان آخران عارفان بالغناء جداً[4] . ومن العسير أن نثبت أن رجال الدين هنالك كانوا يكرهون الغناء ، أو يتشددون النكير على أهله ، بل لعلهم كانوا في هذه الناحية أقرب الناس شبهاً بفقهاء أهل المدينة ونساكها . ومن الحكايات الدالة في هذا الباب قصة قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى وكان عند رجل من بني حدير وجارية للحديري تغنيهم هذه الأبيات :

طابتْ بطيبِ لِثاتِكَ الأقْداحُ وَزَهَتْ بحمرةِ خدّكَ التفاحُ

١ الجذوة . ١٣٤
٢ الجذوة : ٣٧٤
٣ الذخيرة ١/١ : ٣١
٤ جمهرة الأنساب : ٩١ (الطبعة الأولى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا الربيعُ تنسمتْ أرواحُهُ طابتْ بطيبِ نسيمكَ الأرواحُ
وإذا الحنادسُ أُلْبِسَتْ طَلْماءها فضياء وجهِكَ في الدُّجى مِصْباحُ

فكتب القاضي هذه الأبيات في يده ، وخرج للصلاة على جنازة ، والأبيات مكتوبة على باطن كفه[1] . وكان ابن عبد ربه — وهو ذو الديانة والصيانة — ماراً ذات يوم ببعض الأحياء فسمع مصابيح تغني ، فاستماله غناؤها ووقف تحت الروشن منصتاً . ثم مال إلى بعض المساجد وأخذ لوحاً لبعض الصبية وكتب عليه :

يا مَنْ يَضِنُّ بصوتِ الطائرِ الغَرِدِ ما كنتُ أحسبُ هذا البُخلَ من أحدِ
لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً أصغتْ إلى الصوتِ لم ينْقُصْ ولم يزدِ

فلما قرأ سيدها الأبيات ، خرج إليه مسرعاً ، وأدخله بيته ورحب به[2] . ويصف لنا الإمام ابن حزم مجالسَ الغناء ويذكر الشعر الذي كان يغنّى به ويصور شدة تأثره بما يسمع[3] . وكلفته خُمْنى العامرية إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر صَنْعَ أبياتٍ تلحنها ، ففعل . وذكر أن لها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً[4] . وتناول ابن حزمٍ الغناء من الناحية الفقهية في رسالته : الغناء الملهي وهل هو مباح أو محظور . وورد الأحاديث التي تقول بحظره جميعاً[5] . إلا أن هذا الميل ليس عاماً فقد وجد بين الناس من ينكر

١ الجذوة : ٧٠
٢ الجذوة : ٩٥
٣ طوق الحمامة : ٣١ ، ١١٠
٤ طوق الحمامة : ١١٤
٥ رسائل ابن حزم : ٩٣ وما بعدها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا المذهب ، ولما شاء ابن حيان أن يثلب أحد الفقهاء قال فيه : « من رجل مرخص في السماع ، صبّ بإنشاد الأغاني الفاتنة »[1] فجعل ذلك بعض عيوبه .

ومهما يكن من شيء فقد شاع الغناء في البلاد الأندلسية عامة ، ولم يقتصر احتفال الناس به على قرطبة ، بل لعل المدن الأخرى بذّتْها في هذا الشأن ، وأحرزت إشبيلية بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه قصب السبق في كثرة الإقبال على اللهو وآلات الضرب والغناء ، حتى لقد قال فيها ابن رشد . « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية »[2] . وفي سنة ٤٠٦ كان التجيبي شارح المختار من شعر بشار مريضاً بمدينة مالقة فقال يصف حاله في تلك المدينة : « وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية » ، وقد أعجب بغناء جارية كانت تغني أبياتاً منها :

ما بالُ أنْجُمِ هذا الليلِ حائرةً أصَلّتِ القَصْدَ أمْ ليست على سَنَنِ
عادتْ سواريه وقفاً لا حراكَ لها كأنّها حُشَّتْ صَرْعى بِمُعْتَرَكِ

فلمّا سأل عنها عرف أنها جاريةٌ بغدادية من جواري المنصور بن أبي عامر ، صارت إلى أحد الوزراء[3] .

ويمكننا القول بأن الغناء من الناحية الفنية لم يتطوّر كثيراً بعد زرياب ، وقد عرفنا عدداً من المغنين الذين عاشوا بعده منهم وضيح بن عبد الأعلى الذي

١ الذخيرة ١/٢ ، ١٠٠
٢ المقتبس ١ ، ٧٦
٣ شرح المختار ، ١٥ – ١٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان في زمن هشام المؤيد ومعاصره سعيد بن كامل ، وساعدة بن بريم الذي رحل إلى المشرق وزار مصر والشام والعراق ، وغير هؤلاء من المغنين ، ولكن الأصوات التي يغنونها كانت جميعها من الشعر المشرقي . وليس هناك من إشارة إلى أثر ألحان زرياب فيها ؛ وقد تغذى الغناء الأندلسي بالألحان والأشعار المشرقية لأن كثيراً من حملة ذلك الغناء كانوا من الطراء المهاجرين ، ولكن هل تلقى ذلك الغناء أثراً آخر غير مشرقيّ ؟ إنّنا لا نستبعد تأثره بالنغمات المحلية على نحو عفويّ خالص ، كذلك نقل صاحب مسالك الأبصار أن سليماً مولى المغيرة بن الحكم « أخذ الطرب عن رسل أتوه من قبل النصارى وأمر بتأخيرهم ووكل بهم إلى حين مسيرهم . وأتقن الفن وحقق الظن ، ثم أتى المغيرة بجارية عراقية وكانت تطارحه الغناء حتى برع . وجمع الغناء العراقي مع ما جمع »[1] . فهذا النص — إن صحّ — يدل على أن الغناء الأندلسي تلقى تأثيراً أجنبياً قبل دخول زرياب إلى الأندلس . وقد كانت عملية الاسترقاق تقوي من هذا الأثر الأجنبي ، كذلك ساعد على تقويته بعض المغامرين ، وشاهد ذلك قول صاحب المسالك أيضاً في ترجمة المغني حصين ابن عبد بن زياد : « ولج بلاد النصارى وتوغل في ولوجها ، وسكنها وسكن إلى علوجها . ثم عاد إلى حوزة المسلمين ، ورجع ما كسب إلا الغناء بعد طول سنين »[2] . والحق أن الأندلس أصبحت بوتقة انصهرت فيها التيارات الغنائية المختلفة ، وكما كان العرب يرتاحون إلى التلاحين الوافدة كانت الأغاني العربية تردّد في البلاطات الأجنبية ويجد سامعوها فيها متعة روحية . فقد وهب المستعين سليمان بن الحكم لشانجة بن غرسية عدداً من الجواري ، وذكر من

١ مسالك الأبصار ١٠ ٣٨٥ (مخطوطة آيا صوفيا رقم ٣٤٣٣)
٢ المصدر السابق : ٣٩٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زار بلاط بنت شانجة ملك البشكنس (زوجة شانجة بن غرسية) أنها أمرت إحدى الجواري بالغناء ، فأخذت العود وغنت :

خليلي ما للريح تأتي كأنّما يخالطها عند الهبوب خلوقُ
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي فأحسبها ريح الحبيب تسوق[1]

وتكفينا هذه الأمثله في تصوير ما كان للغناء من شأن كبير لا في نشر النماذج الشعرية المشرقية وحسب بل في تقريب الشقة بين ضروب مختلفة من الصور الأدبية ، وفي رسم أسس جديدة للاتجاهات الشعرية في الأندلس .

وقد طلت « النوبة » التي استحدثها زرياب هي أكبر ما يلفت النظر في الغناء الأندلسي ، وهي ما يسمى أحياناً « التبديل » ، ولهذا نسمع الرمادي يقول في وصف الطائر المعروف بأم الحسن[2] :

مُسمعةٌ من غيرِ أوتارِ إلاّ ارتجالاً فوقَ أشجارِ
يقترح الناسُ عليها وما يقترحُ الناس على الطاري
تبدلُ إن قيلَ لها بدّلي طائعةً من غير إصغار
كأنّها في حين تبديلها تأخذ في أهزاج أشعار

فهذه المغردة تؤدي « النوبة » وتستجيب لاقتراح أهل الطرب بعكس الطراء — وأكثر المغنين من الطراء — فإنّهم يستكبرون ويدلون بفنّهم ولا يستحيبون لما يطلبه الناس ، وقد كرّر الرماديُّ هذا المعنى نفسه ، وغمز الطراء مرة أخرى فقال :

١ الدخيرة (القسم الثالث) ٠ ١٠٧ — ١٠٨
٢ كتاب التشبيهات ٥٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبدّلُ ألحاناً إذا قيلَ بدّلي كما بدلت ضرباً أكف الضواربِ
تغني علينا في عروضين شعرها ولكنّ شعراً في قوافٍ غرائبِ
إذا ابتدأت تنشدك رجزاً وان تقل لها بدلي تنشدك في المتقاربِ
وليس لها تيه الطراء بصوتها ولكن تغني كل صاحٍ وشاربِ

(٣) النهضة الثقافية وأثرها في الشعر الأندلسي :

في هذا الجو من جهود المؤدبين من القياس على الطرائق الغنائية المشرقية ، كان الشعر ما يزال في حاجة إلى ثالث هذه الأبعاد . أعني إلى العمق الثقافي ، لكي ينأى — ولو قليلاً — عن روح التقليد وعن سطحية الغناء وخفته . وقد قام أولو الأمر بتشجيع الثقافة وتقريب أصحابها من المقيمين والوافدين ، وهيأوا الأسباب التي تكفل تقدمها ونماءها ، فرعوا أمر الفقه واللغة والطب والتنجيم ، وشجعوا المؤلفين على التأليف . فقد رأينا كيف كانت هجرة الكتب المشرقية أيام الأمير الحكم ناشطة على أيدي تجار مشارقة كانوا يتكسبون ببيعها في الأندلس . وكان الحكم هو الذي عني بتخريج ابنه عبد الرحمن في العلوم الحديثة والقديمة ولذلك كان شغوفاً بالثقافة وجمع الكتب . وهو الذي وجه إلى المشرق عباس بن ناصح الجزيري في التماس الكتب القديمة فجاءه بالسند هند وغيره منها ، وهو أول من أدخلها الأندلس . وعرّف أهلها بها ونظر هو فيها[1] . وفي وسط المائة الثالثة ، أيام الأمير محمد ابنه ، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع إلى أواسط المائة الرابعة[2] ، وممّن اشتهر بطلب العلوم في هذه الفترة أبو عبيدة

١ المغرب ١ · ٤٥
٢ طبقات الأمم · ٧٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلنسي المعروف بصاحب القبلة وكان فلكياً دارساً للجغرافيا وقد هاجمه ابن عبد ربه واتهمه بأنّه ينسب الرزق إلى الكواكب . وأنّه يقول بكروية الأرض وتخالف الفصول في نصفيها الجنوبي والشمالي . واهتم بالمنطق والحساب محمد ابن إسماعيل الملقّب بالحكيم . صديق القلفاط الشاعر النحوي . إلا أن الأندلسيين ظلّوا ينظرون في ريبة إلى من يشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والجدل ، ولا يتقبلون من علوم الأوائل إلاّ الطب والحساب حتى مضت عدة سنوات من حكم الناصر ، ونصب ابنه الحكم نفسه لتشجيع العلوم دون تفرقة وإليه يعود الفضل في ظهور نهضة علمية شاملة بالأندلس

كان الحكم شاباً مثقفاً واسع الاطلاع ذا لذة في شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم، سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد ابن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء . وكان نظاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلّما تجد كتاباً في خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه . ويكتب فيه بخطّه إمّا في أوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له ويأتي من ذلك بعرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن وكان موثوقاً به مأموناً عليه حتى صار كل ما كتبه حجّة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه [1] . قال الحميدي في ترجمة ابن عبد ربه : « توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة [وعين اليوم والعمر بالسنوات والأشهر والأيام] ومدح الأمير محمداً والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن الناصر . هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطّه حجّة عند أهل العلم عندنا » [2]

١ الحلة السيراء . الورقة ٤٨

٢ الجذوة : ٩٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذكر ابن الأبار أنّه اجتمع له جزء مفيد ممّا وجده بخطّه وأنّه وجده يشتمل على فوائد جمّة في أنواع شتّى ، وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده[1] ، ومن تقييداته أمثلة منقولة في طبقات الزبيدي والمرقبة العليا للنباهي وغيرهما[2]

وقد كانت خطّة الحكم فيما يتأتى له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابكة منها إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ، ودفع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي ، قبل أن يتطاول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه للعلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشارقة ، تميز من بينهم أبو علي القالي اللغوي ، ولا يستبعد أن يكون الحكم هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه ، فتلقاه مرحباً وبالغ في إكرامه ، وهو يومئذ ولي عهد إذ كان قدوم القالي في خلافة الناصر سنة ٣٣٠ ، وظل على تعهده له وتشجيعه بعد أن أصبحت الخلافة إليه ، وكان ينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام[3] وباسمه طرز أبو علي كتاب الأمالي وهو المسمى بكتاب النوادر وقد رواه عنه جماعة من العلماء منهم الزبيدي وحكم ابن منذر بن سعيد وأحمد بن أبان بن سيد والقزاز والقاضي ابن مغيث وغيرهم ، وكان أبو علي يمليه على طلبته من بني ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ، ثم زاد فيه فجعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً للحكم

١ الحلة : الورقة : ٤٨

٢ انظر المرقبة : ٦٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٢ وابن الفرضي ١ : ١٥١ ، ٢٦٦ ، ٣٦٧ ، و ٢ : ١٤

٣ الجذوة : ١٥٦